الدين والعرق في سياق هجرة أفارقة جنوب الصحراء إلى المغرب: حالة المهاجرين المسيحيين بمنطقتي أكادير وإنزكان

محمد قويسح
طالب باحث بسلك الدكتوراه، جامعة ابن زهر
كلية اللغات والفنون والعلوم الإنسانية، ايت ملول
المغرب

الملخص التنفيذي:

تهدف الدراسة إلى تحليل دور الدين في تشكيل الهوية العرقية وتأثيره على اندماج المهاجرين من إفريقيا جنوب الصحراء بمنطقتي أكادير وإنزكان، من خلال منهج تحليلي ووصفي ومقابلات ميدانية مع 26 مهاجرًا مسيحيًا. تكشف النتائج أهمية الدين في تعزيز التماسك الاجتماعي، توفير الدعم للمهاجرين، والحفاظ على الهوية العرقية عبر ممارسات عابرة للحدود. كما أن الدين يشكل أداة استراتيجية لفهم تجارب المهاجرين اليومية، حيث يواجه المسيحيون تحديات أكبر في القبول مقارنةً بالمسلمين. توصي الدراسة بإدماج الدين كعنصر محوري في نظريات الهجرة لفهم أعمق لعمليات التكيف والاندماج.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، الدين، العرق، إفريقيا جنوب الصحراء، المسيحية، التعدد الثقافي

Abstract:

This study aims to analyze the role of religion in shaping ethnic identity and its impact on the integration of sub-Saharan African migrants in the Agadir and Inezgane regions. Utilizing an analytical and descriptive approach, along with field interviews conducted with 26 Christian migrants, the findings highlight the significance of religion in fostering social cohesion, providing support to migrants, and preserving ethnic identity through transnational practices. Religion emerges as a strategic tool for understanding the daily experiences of migrants, with Christian migrants facing greater challenges in acceptance compared to their Muslim counterparts. The study recommends integrating religion as a central element in migration theories to gain deeper insights into processes of adaptation and integration.

Keywords: Migration, Religion, Race, Sub-Saharan Africa, Christianity, Cultural Diversity.

مقدمة:

يعتبر المغرب بلد الهجرة بامتياز، ويلعب موقعه الجغرافي بأقصى الشمال الغربي للقارة الإفريقية، وقربه من إسبانيا عاملا مهما في محط تفكير المهاجرين للعبور إلى القارة الأوروبية، وبهذا يعرف المغرب تدفقات للهجرة بشكل كبير، لكن بعد الرقابة من طرف الاتحاد الأوروبي على الحدود، تحول المغرب من بلد مصدر وعبور إلى بلد استقبال للمهاجرين الساعيين إلى تحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية. وبهذا تتم إعادة تشكيل النسيج المجتمعي المغربي، ويصبح خليطا غير متجانس ومتعدد الثقافات.

ويعد تكوين الهوية للمهاجرين، أمرا مهما بشكل خاص، حيث ترتبط جوانب معينة من هويتهم بفهمهم للذات في سياق متعدد الثقافات، ويعتبر الدين والعرق عنصران مهمان في تشكيل هوية المهاجرين، لما يلعبانه من دور رمزي واجتماعي في حياتهم، ومع انتشار الجماعات العرقية المهاجرة التي تحمل معتقدات دينية مختلفة، فإن السؤال المتكرر في الرأي العام وبين المحللين الاجتماعيين هو ما إذا كانت أديان المهاجرين هي عامل اندماج وتهدئة أم عامل نزاع و "تفكك."

وتعتبر الهوية الدينية من أهم الجوانب المشكلة للتعدد الهوياتي عند المهاجر، والتي لم تلقى الاهتمام الكبير بالدراسة، ويتم تعريفها بأنها استكشاف الفرد والتزامه بمجموعة اجتماعية وثقافية مرتبطة بقوة إلهية. وهذا عكس التدين الذي يعتبر التجسيد المعرفي أو الروحي أو السلوكي أو الاجتماعي للهوية الدينية، لأنه غالبا ما يتم الخلط بين التدين والهوية الدينية في الأدبيات الأكاديمية.

إن مسألتي الدين والعرق تكتسيان أهمية بالغة، خصوصا إذ ما تم ربطهما بظاهرة الهجرة، وما مدى التزام المهاجر بالمجموعة الاجتماعية والثقافية والعرقية المنتمي إليها! على الرغم من أن بعض الدراسات أكدت أن الهجرة تحدث في جميع الأوقات وفي مختلف الفئات العمرية، وكان الدين دائما جانب مهم في هجراتهم. إنه بهذا نقل لمجموعة من المواقف والتصورات والمعتقدات... إلى حيث يرتحل المهاجر، وهكذا فإن الدين يحافظ عليه اللاجئون عبر عمليات النزوح والهجرة والاندماج .

وعلى الرغم من وجود ديانات مختلفة بالمغرب، إلا أنه دائما ما يتم تجاهل الاختلاف الديني، بحيث ينظر للمغرب أنه دولة مسلمة بحتة، في حين أن باقي الشعائر الدينية والطقوس الروحية لمعتنقي الديانات الأخرى تمارس بشكل سري. هذا بالنسبة للديانة اليهودية بالمغرب، في حين أن المسيحية مرئية نوعا ما، من خلال بعض أماكن العبادة التي يعود تاريخها إلى حقبة الاستعمار لكن تظل مرتبطة بالغربيين البيض، ومع تدفق الهجرات صوب المغرب، ووصول وافدين من دول إفريقيا جنوب الصحراء من المعتنقين للديانة المسيحية، انكشف الاختلاف الديني وإن كان ذلك بشكل خجول، وبالتالي سنستثمر مفهوم الآخر للتعبير عن ذلك المختلف دينيا والملتزم بمجموعة اجتماعية وثقافية وعرقية معينة، والمخالفة معتقداته وتصوراته ومواقفه للهوية الدينية بالمجتمع المغربي.

ويعد تطبيق الشعائر المقدسة والطقوس، متفاوتا بين أعضاء الانتماء العقدي الواحد، وعلى العموم فإن هذه الشعائر وممارستها من طرف المهاجرين في أوطانهم الأصلية دائما ما تتخلل حياتهم، منذ طفولتهم حيث يحكم الدين بقوة جميع جوانب حياتهم، أما في سياق الهجرة تصبح الكنيسة للمهاجرين معلما اجتماعيا ودينيا ومنظما لحياتهم على أرض المسلمين، فهي تقوي الروابط وتعيد هيكلة العلاقات.

وتتجلى أهمية موضوع البحث، في كونه سعي إلى الخروج بنتائج عبر تسليط الضوء على مسألة بالغة الأهمية تتعلق بالدين والعرق في سياق الهجرة بالنسبة لمهاجري دول افريقيا جنوب الصحراء المسيحيين بمنطقتي أكادير وإ نزكان، هذان المقومان اللذان يعتبران من مقومات الهوية مثلهما مثل الجنس، اللغة والثقافة... إضافة إلى ربطه بالسياق المغربي، الموسوم بتحولات، وتغير في النسيج المجتمعي في ظل تدفق الهجرات. وإذ نترجى من خلاله بلوغ أهداف تتمثل في محاولة فهم تأثير الهجرة والانتقال من بيئة سوسيوثقافية

معينة لأخرى، على الدين وأهميته للمهاجرين بالمغرب، وما مدى ممارسة المهاجرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء المسيحيين لطقوسهم الدينية وشعائرهم المقدسة.

الإشكالية

يمثل مفهوم الدين إشكالية متعددة الأبعاد، نظراً لتنوع المقاربات الفكرية التي تتناول هذا المفهوم وتباين مرجعياته المعرفية. فهو يتشابك مع مجموعة واسعة من الحقول المعرفية والإبستمولوجية، مثل الفلسفة، وعلم الاجتماع، والسياسة، والتاريخ، بالإضافة إلى مكوناته الداخلية التي تشمل الثقافة، والتراث، والهوية، والعرق، وغيرها من القيم والخصائص .

هذا التعدد والتعقيد المرتبط بالمفهوم ذاته يولد تساؤلات فكرية وإشكاليات عميقة حول مدى ثبات الهوية الدينية الأصلية، خاصة في سياق تعايش "الأنا" و"الآخر". ومن بين أهم القضايا التي يطرحها سؤال الدين في سياق الهجرة، تبرز علاقة الهوية الدينية بالانتماء العرقي، والتي أصبحت محوراً بارزاً في النقاشات الفكرية والأيديولوجية، انطلاقاً من مركزية الدين وإشكالاته العلائقية المرتبطة

وفي هذا السياق، تنصب إشكالية البحث على التساؤل: إلى أي مدى يظل الدين والانتماء العرقي عنصرين مؤثرين في سياق الهجرة بالنسبة للمهاجرين القادمين من دول إفريقيا جنوب الصحراء إلى منطقتي "أكادير" و"إ نزكان"؟

منهج البحث وأدواته

تسعفنا مجموعة من مناهج البحث العلمي، لدراسة موضوع البحث المعنون الدين والعرق في سياق هجرة أفارقة جنوب الصحراء إلى المغرب: حالة المهاجرين المسيحيين بمنطقتي أكادير وإ نزكان.، وفي هذه الدراسة سنستعين بالمنهج التحليلي لما له من أهمية إذ يقوم على تجزئة المشكلة البحثية إلى العناصر الأولية التي تكونها، لتسهيل عملية الدراسة وبلوغ النتائج المرجوة، إضافة إلى الاستعانة بالمنهج الوصفي لما له من واقعية في التعامل مع مشكلة البحث، نظرا لوجود الباحث في قلب الميدان، ويعود اختيار هذا المنهج بالأساس للحصول على الوصف الكيفي الذي يتمثل في السلوك الخارجي للموضوع المدروس، كما سيساعد هذا المنهج في إجراء مقارنات بين الحالات المدروسة من المهاجرين المسيحيين.

يتطلب البحث العلمي جمع المعطيات باستخدام تقنيات متنوعة. في البداية، سيتم الاعتماد على الملاحظة البسيطة والمستمرة قرب الكنيسة بمدينة أكادير لمراقبة روادها ورصد تواجد المهاجرين من دول جنوب الصحراء. تلي ذلك تقنية المقابلة الفردية التي تتيح جمع معلومات نوعية حول تصورات ومواقف المهاجرين المسيحيين من إفريقيا جنوب الصحراء في منطقتي أكادير وإ نزكان. تم إجراء 26 مقابلة شملت مهاجرين من ديانتَي الكاثوليكية والبروتستانتية، بهدف تحقيق فهم أعمق لواقعهم وتجاربهم، مع التركيز على الاستفادة من المقاربة الكيفية لتقصي الحقائق وتحليلها.

المحور الأول: الدين والانتماء العرقي في سياق الهجرة بالنسبة للمهاجرين القادمين من دول إفريقيا جنوب الصحراء

أحد الاهتمامات الأساسية للمهاجرين هو إنشاء نسخة مزروعة لمنظمتهم الدينية القديمة في البلد الجديد[1]. بحيث يرتبط الدين ارتباطًا وثيقًا، بإعادة بناء كنائسهم القديمة، أو مساجدهم إذ يساعد هذا المهاجرين على تأسيس هويتهم الدينية والعرقية في بلد وتكوين مجتمعهم والاستقرار في الأرض الجديدة[2]. على الرغم من هذا الارتباط الوثيق، يظل الفهم النظري للعرق والدين مفككًا، العديد من دراسات الحالة الوصفية للمجموعات العرقية المهاجرة، ولكن القليل منها، يربط بين نظريات الدين ونظريات العرق والهجرة

لفهم العرق والدين وعملية دمج المهاجرين، ولا تزال الأدبيات الدينية منفصلة إلى حد كبير عن الإثنية وقضايا الهجرة على الرغم من الروابط الدائمة بين الدين والعرق، في هذا الفصل سنحاول الربط بين نظريات الدين والعرق وقضايا الهجرة.

1 نظرية الاستيعاب والعلمنة الكلاسيكية

نظريات الاستيعاب، التي يمكن إرجاعها إلى مدرسة شيكاغو في أوائل القرن العشرين، تتعامل بشكل خاص مع دمج المهاجرين في المجتمع الأمريكي، وتنظر نظريات العلمنة، التي يمكن إرجاعها إلى بدايات علم الاجتماع، في الآثار الأوسع للتحديث على المجتمع بشكل عام والدين بشكل خاص، هاتان النظريتان الرئيسيتان في الهجرة والدين، متشابهة بشكل مدهش كلاهما يتوقع تراجع العرق والدين إن لم يختفيا بمرور الوقت.

تفترض نظرية الاستيعاب الكلاسيكي أن الفروق الإثنية والعرقية لا مكان لها في مجتمع عقلاني حديث، إن قوى الحداثة، التصنيع، البيروقراطية، التوسع الحضري، والديمقراطية التي تؤكد على المكانة من خلال الإنجاز والعقلانية، ستلغي الحاجة إلى التصنيفات العرقية والإثنية نسبيا، فهي تنظر إلى أن الاختيار على أساس المعايير العرقية والإثنية هو من بقايا مجتمع ما قبل الحداثة، وبالتركيز على مجموعة متجانسة نسبيًا من المهاجرين الأوروبيين في القرن العشرين، من المتوقع أن تكون عملية الاستيعاب حتمية إلى حد كبير ولا رجوع فيها، باتباع خط سلس ومستقيم وفريد وأكثر عقلانية دون الحاجة إلى الدين أو الانتماءات العرقية[3]. يتضح هذا في أحد العروض التقديمية المبكرة والأكثر تأثيرًا لنظرية الاستيعاب من قبل روبرت بارك وأعضاء آخرين في مدرسة شيكاغو.

يعرف الاستيعاب بأنه عملية اندماج وتغلغل[4]، يقدم روبرت بارك وجهة نظر حتمية لدمج المهاجرين، ويتأثر بالفلسفة الداروينية والإنسانية، ويضع الاستيعاب باعتباره المرحلة النهائية لدورة علاقة عرقية من "الاتصال، والمنافسة، والإقامة، والاستيعاب النهائي[5]. يتواصل المهاجرون مع مجموعات أخرى في بيئة حضرية، فإنهم يتنافسون ويتقاتلون على الموارد الشحيحة، إن الإطار الزمني الذي تندمج فيه مجموعات المهاجرين في المجتمع المهيمن غير واضح، لكن العملية نحو الاستيعاب "تقدمية على ما يبدو ولا رجوع فيها[6]. ويجادل بارك بأن استيعاب المهاجرين، حتمي ومؤكد بالنسبة للمهاجرين البيض، وهذا ما تأكد من خلال البحث الميداني إذ أكد المهاجرون من دول إفريقيا جنوب الصحراء أن عملية قبولهم في المجتمع المغربي غاية في الصعوبة مقارنة بالمهاجرين المصريين والسوريين، فدائما ما ينظر إلى المهاجرين ذوي البشرة السوداء على أنهم " لصوص".

يقدم نموذج العلمنة أيضًا منظورًا تطوريًا اجتماعيًا يخضع الدين في النهاية لقوى الحداثة، في مواجهة التوسع الحضري المتزايد، والعقلنة، وهيمنة العلم الذي يميز الحداثة، اعتُبر التدهور والاختفاء النهائي لنظم المعتقدات الدينية التقليدية أمرًا لا مفر منه ولا رجعة فيه[7].

يقدم بريان ويلسون واحدة من أقوى قضايا العلمنة بتعريف العلمنة على أنها "العملية التي يفقد فيها التفكير والممارسة والمؤسسات الدينية الأهمية الاجتماعية"[8]. ويرى ويلسون أن العلمنة حقيقة غير أيديولوجية للحداثة، حيث كان في الماضي، المجتمع هو المركز الأساسي للحياة البشرية وكان الدين في المجتمع هو مصدر المعرفة والنظام الاجتماعي، لكن في نهاية المطاف حل نظام مجتمعي عقلاني محل أنماط النظام المجتمعي ..." .بينما دخل الدين ذات مرة في نسيج الحياة المجتمعية، إلا أنه في المجتمع الحديث يعمل فقط في أماكن متداخلة في النظام"[9] من خلال العيش في عالم حديث متقدم علميًا، يطور البشر توجهًا عقلانيًا واسع النطاق للعالم، يبعدهم عن الدين، في هذه الحالة يكون للدين أمل ضئيل.

على عكس ويلسون الذي يعتبر الدين في الأساس متغيرًا تابعًا، فبيتر بيرغر يعرض الدين كمتغير مستقل ومتغير تابع[10]، ويقترح بيرغر في عمله المبكر أن العلمنة التي عرّفها على أنها "العملية التي يتم من خلالها إبعاد قطاعات المجتمع والثقافة عن هيمنة المؤسسات والرموز الدينية".

وهذا لا يعني أن الاستيعاب يجبر على التخلي عن ثقافة وقيم ودين عرق معين مقابل الثقافة السائدة ببلد الاستقبال بل يتعلق أساسا بمساهمة هؤلاء الأفراد أو هاته الجماعات الإثنية في سير المجتمع مع الحفاظ على خصوصياتها وذلك من خلال اللغة وتقاليد وتقنيات مشتركة[11].

2 أهمية استمرار الدين والعرق للمهاجرين

تحتوي مجالات الهجرة والدين على نظريات تتنبأ بانحدار العرق والدين، لكن لكل منهما أيضًا نظريات تفسر العكس تمامًا، فهناك نظريات تشرح على التوالي مرونة العرق والدين في مساعدة المهاجرين بالاندماج في البلد المستقبل، إذ تعتبر الدين جيد بشكل خاص في تزويد المهاجرين بحس المعنى والهوية والانتماء. وتظهر الأعمال الكلاسيكية لرواد علم الاجتماع بدء من الأشكال الأولية للحياة الدينية لإميل دوركهايم وصولا الى الدراسات المعاصرة للمجتمعات الدينية، بضرورة استمرارية الدين في منح التضامن والتماسك الاجتماعيين للأفراد والجماعات، ويجادل في هذا الصدد بيتر بيرغر بأنه في مواجهة الطبيعة غير المستقرة للعالم الاجتماعي، فإن كل مجتمع منخرط في بناء عالم مهم وأن الدين يلعب دورًا محوريًا في أعمال بناء المعنى[12]. فالدين "له دور استراتيجي في المشروع البشري لبناء العالم".

علاوة على ذلك، فالكنيسة العرقية هي المكان الفعلي للممارسة الدينية الذي يجد فيه المهاجرون شعورًا بالانتماء والقيمة والمأوى الأرض المستقبلة، إنه المجتمع الخاص بهم من نواح كثيرة، إذ أن الممارسة الطقوسية والشعائرية هي التي تمنح للدين استمراريته، فبواسطتها يفرغ المهاجر أعباءه وتجاربه المحيرة، وهذا بالتحديد ما خلصت إليه دراسة للمهاجرين من جنوب إيطاليا في مطلع القرن العشرين، إذ وجد رودولف فيكولي أن الدين هو أحد "الطرق المجربة والحقيقية للتعامل مع المجهول العظيم" ومساعدة المهاجرين على التعامل مع التحديات المختلفة التي يواجهونها في البلد الجديد[13]. وبالمثل خلصت دراسة ويل هيربيرج للمهاجرين البروتستانت والكاثوليك واليهود إلى أن الدين يعمل باعتباره "مركزًا ذا معنى للحياة "إنه يوفر للمهاجرين "طريقة أساسية لـ «التكيف "و" الانتماء>>[14].

نفس الأمر ينطبق على العرق أيضًا بحيث يوفر أساسًا مهمًا للهوية والمعنى، فوفقًا للنظرية البدائية للعرق، كانت الفروق العرقية والإثنية بارزة وقد حددت بشكل عام خطوط الصراع بين المجموعات عبر التاريخ لأن الفروق العرقية والإثنية هي الهوية الجماعية الأساسية للبشر، إنها متأصلة بعمق في الطبيعة البشرية[15]. فالروابط العرقية هي امتدادات للقرابة وتشكل التحالفات العرقية لأنها تعزز مصالح الذين يُعتقد أنهم من أصل مشترك، وفي هذا الباب فإن الفكرة القائلة بأن العرق بدائي بطبيعته محل نزاع، ولكن هناك إجماع على أن العرق يوفر للناس معنى وهوية ومجتمعًا[16]. ويقوم العرق على فكرة ذات هوية ثقافية مشتركة، والتي تعني الناس أو الأمم التي ترتبط بالمجموعة العرقية بشكل عام بتراث مشترك وشعور بأفرادها، ومنه فإن العرق نفسه هو المجتمع والهوية.

وبوضع الوظائف المتشابهة للعرق والدين معًا، يمكن أن يكون للمجموعات العرقية والدينية أساس أقوى لبناء المعنى والتماسك الاجتماعيين، وتمكن المنظمات الدينية العرقية الأفراد من إيجاد مجتمع وبناء هوية دينية وعرقية، وبالتالي قد تكون التجمعات العرقية المنفصلة شائعة جزئيًا لأن العرق والدين يؤديان وظائف مرغوبة مماثلة ويوفران مصدرًا أكثر أهمية للمعنى والتضامن الجماعي.

كما تقدم التجمعات الدينية العرقية للمهاجرين مجموعة متنوعة من الخدمات الاجتماعية والمساعدات وتوفر مصادر مهمة للرأس المال الاجتماعي والتعليم والوظائف[17]. مما يساعد في ضمان استمرارية الدين والتمسك بالهوية العرقية للمهاجرين، فعلى سبيل المثال توفر الكنائس المتواجدة في حي الباطوار و أغروض بنسركاو، الطعام والسكن والتوظيف والملاذ الآمن للمهاجرين الوافدين حديثًا من دول إفريقيا جنوب الصحراء، ويستفيد أبناء المهاجرين أيضًا من الاندماج في المجتمع الإثني عبر التجمعات الدينية، ويمكن لبعض أطفال المهاجرين اليوم درء إغراء ثقافات المدينة وآثار التمييز العنصري وسوق العمل المجزأ من خلال الاعتماد على دعم آبائهم والمجتمع العرقي، و تلعب تجمعات المهاجرين دورًا مركزيًا في ربط الأطفال بالمجتمع العرقي، إذ وجد العديد من العلماء أن الكنيسة العرقية مصدر إيجابي للرأس المال الاجتماعي للأبناء[18].

وبتزايد حجم وأشكال الهجرة طرأت تغيرات هائلة على مدى آلاف السنين، لكن الهجرة لا تزال ظاهرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالأديان في بعض الحالات، بحيث يكون للهجرة دوافع وأسباب دينية أحيانا، ولذلك آثار ليس فقط على كيفية ممارسة المهاجرين وأحفادهم للدين ولكن أيضًا على المجتمعات التي يستقرون فيها، سيكون من المبالغة الادعاء بأن الدين كان دائمًا جانبًا مهمًا من جوانب الهجرة – باستثناء حالات مثل الهجرة ردًا على الاضطهاد الديني أو الهجرة سعياً وراء أهداف دينية – ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك في أن الأبعاد الدينية للهجرة والاستيطان في مواقع جديدة يمكن أن تكون مهمة، وفي الواقع تساهم التدفقات الدولية للمهاجرين في إعادة توزيع «ديانات العالم» عبر مناطق العالم (مركز بيو للأبحاث، 2015، 12-13).

لذلك شهد أوائل القرن الحادي والعشرين زيادة في الحساسية بين علماء الاجتماع والسياسيين والسلطات الدينية وصانعي السياسات لأهمية تداخل الأديان مع الهجرة، وينعكس ذلك في تكاثر المنشورات والأنشطة البحثية الأخرى التي تركز على هذا الموضوع، و جميعها إلى أن المفاهيم الأساسية والأفكار النظرية حول الدين والهجرة ليست مثيرة للاهتمام في حد ذاتها فحسب، بل تتداخل أيضًا مع اهتمامات أوسع، على سبيل المثال: الجنس، العولمة، الشبكات عبر الوطنية، والاتصال الافتراضي، التعددية الثقافية، التنقل، عمليات الإقصاء، وحقوق الإنسان والعلمانية. ولكن يبقى الدين أحد أهم عناصر المجتمع، ولا يوجد من فراغ أو بمعزل عن المجتمع، حيث من الأفضل رؤيته في سياق اجتماعي، فكل دين يشمل معتقدات مجتمع معين أو عدد من المجتمعات، إذ من الضروري إبراز التكوين الاجتماعي للدين.

وفي هذا الصدد قسم وليام سميث المشاكل الحياتية إلى ثلاثة أقسام، بحيث لم يجعل الدين بمعزل علن الحياة الاجتماعية، فهو ينظر إلى أنه «أينما يعيش الناس، ومتى كانوا يعيشون، يجدون أنفسهم في مواجهة ثلاثة مشاكل لا مفر منها: كيفية كسب الغذاء والمأوى من بيئتهم الطبيعية (المشكلة التي تطرحها الطبيعة)، وكيفية التعايش مع بعضهم البعض (المشكلة الاجتماعية)، وكيفية ربط أنفسهم بالمخطط الكلي للأشياء (المشكلة الدينية). ويعتبر أنه إذا بدت هذه المسألة الثالثة أقل أهمية من القضيتين الأخريين، فيجب أن نذكر أنفسنا بأن القطع الأثرية الدينية هي الأقدم التي اكتشفها علماء الآثار وبالتالي فالمعتقدات السائدة لدى الناس هي بمثابة مواجهة وتفسير للظواهر التي تعترض طريقهم، وأن الدين قديم قدم الإنسان ويحتل مكانة مهمة في الحياة الاجتماعية للناس.

وفي سياق بحثنا هناك سببين على الأقل وراء ارتباط الدين بالمخاوف المتعلقة بالهجرة، أولا يمكن اعتبار الدين رمزًا ثقافيًا للأمة وحدودًا رمزية للأغلبية العرقية[19]، أو كمؤشر على القيم التقليدية الفردية، ثم ثانيا ربط الدين بالقومية المغربية، ومن المرجح أن يعتقد المسلمون المغاربة أن الانتماء للإسلام هو شرط أساسي لانتماء إلى الأمة. بحيث قدم أحد المهاجرين (ذكر، 45 سنة، ملاوي متزوج). إفادة في هذا الباب إذ يعرب عن رفض عائلة مغربية تزويج ابنتها له على الرغم من علاقة الحب التي تجمع بينهما، على حد تعبيره، إذ يقول على أن " تلك العائلة استعرضت أمامه العديد من الأسباب وراء الرفض ومنها أنه لا ينتمي للأمة الإسلامية"، معتبرا أن الدخول قد ييسر للمهاجر العديد من الأمور، ويقدم لنا المشارك في البحث مقارنة بين المهاجرين السنغاليين المسلمين الذين يتمتعون بصدقات

مع المغاربة ومن المرجح بشدة أن يتم تزويجه لمغربية، على العكس من ذلك فالمهاجرون من ديانات غير الإسلام يصعب عليهم وإقامة علاقات بالمغرب ".

ومن بين أهم النقاط التي استأثرت انتباهنا في هذا البحث هي أن العضوية في إحدى كنائس بمدينة أكادير، لا تستدعي استمرار المشاركة مع الكنيسة هنا بالمغرب فحسب، إذ يواصل المهاجرون التواصل مع قساوستهم في إفريقيا جنوب الصحراء ونقل المستجدات إلى المجتمع الديني هناك من خلال الرسائل، وتظل العلاقة دائمة بواسطة إرسال السلع والأموال إلى الوطن عبر سعاة عرقيين عابرين للحدود. إذ يؤكد لنا أحد التجار المهاجرين (ذكر، 23 سنة، غيني، متزوج). بمدينة إنزكان على أن "العلاقة تظل قائمة بينه وبين مجتمعه الأصلي، والتواصل بينهما شبه يومي، من خلال الاتصال بالأهل وكذا حضور المواعظ الدينية عن بعد". إذ مع تطور الحياة المهنية للمهاجرين، وقيام أفراد وعائلات المهاجرين في المجتمع المغربي بتطوير موارد اقتصادية وقانونية كافية، تصبح سلوكياتهم وممارساتهم عابرة للحدود، وهذا يبين مدى أهمية استمرار الدين في ربط أواصر القرابة بين المهاجرين من دول افريقيا جنوب الصحراء مع ذويهم وأحبابهم ومجتمعهم الأصلي.

من خلال التقصي الميداني تأكد لنا أنه يجب علينا تضمين الدين في نظريات الهجرة الدولية المعاصرة، وكذلك الطرق التي يستخدمها المهاجرون في المؤسسات الثقافية القائمة، مثل الكنيسة والممارسات الدينية، خلال المراحل المختلفة لعملية الهجرة، لما لها من ضرورة في فهم الهجرة الدولية المعاصرة، فقد ركز معظم علماء الهجرة على الدوافع الاقتصادية والشبكات الاجتماعية لشرح قرار الهجرة، بينما حصر معظم علماء الدين مخاوفهم المتعلقة بالهجرة على دور المؤسسات الدينية في توطين المهاجرين، وتوضح دراسة حالات المهاجرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء بالمغرب لعملية الهجرة و وجود الدين في العديد من مراحل هذه العملية. كما أوضحت هذه الدراسة، أن المهاجرين يستخدمون الدين بشكل مبتكر للمساعدة في قرار الهجرة، لتحمل مخاطر الرحلة وبناء هياكل مجتمعية عبر وطنية.

إذ أن الدين يخلق ويعيد إنشاء الهوية العرقية والاثنية، حيث يصبح جزءًا من كيفية تعريف المجموعات المختلفة لنفسها، بينما يتفاعل الناس في مؤسساتهم الدينية وشبكاتهم الاجتماعية المتجانسة إلى حد كبير، فإنهم يحددون ويشكلون عوالمهم باستمرار، لكنهم يفعلون ذلك بشكل مختلف عن المجموعات الأخرى، لأنهم يفعلون ذلك في سياق شبكات منفصلة عرقيًا واثنيا، وبالتالي فإن العلاقة بين والهوية العرقية ديناميكية، كل منهما يعزز الآخر. ومن هذا المنظور، فإن إنشاء مجموعات اجتماعية على أساس نظام مشترك من الرموز والمعتقدات يحدث غالبًا على أسس عرقية واثنية لأن "الناس يختارون العبادة مع آخرين من أمثالهم، حيث يتم إنشاء المعنى والانتماء بسهولة أكبر وأكثر إشباعًا بشكل فردي[20]". هذا ما أكدته إحدى المهاجرات (أنثى، 35 سنة، أنغولية، متزوجة). بالقول " أفضل أن أمجد الرب الابن يسوع ونعمته علي مع رفقائي المؤمنين من نفس بلدي وعرقي، لأني أحس بالدونية في الكنيسة، لأن نظرة الفرنسيين إلي ولأمثالي فيها اشمئزاز".

وتعتبر استمرارية الدين والروحانية مهمان لكثير من المهاجرين في صنع المعنى من الحياة وفي قبول المرض والتجارب السيئة[21]، إذ وجدنا أن الدين والروحانية يلعبان دورًا مهمًا في قبول وإدارة الاكتئاب، وفسر المشاركون في البحث أن بعضا من الاحاسيس النفسية السيئة والمربكة للمهاجرين من دول افريقيا جنوب الصحراء يدرجونها ضمن سياق ديني ويعطون متاعبهم للرب بالقول «أعطينا متاعبنا لله "، طالبين العزاء والراحة في الصلاة، ويعتقدون أن الله " أعطاهم القوة والإيمان لفعل ما يحتاجون إليه لحل مشكلتهم ".

ويصف بعض المهاجرين الأنشطة والممارسات (الروحانيات) مثل العبادة، الصلاة، والقراءة الروحية، والتأمل... على أنها موارد لرعاية الصحة العقلية. ويتم التعامل مع الروحانيات والمعتقدات الدينية على أساس أنها مسهل قوي للتعامل في التجارب المحيرة. إذ أن الدين يعتبر مصدرًا مهمًا للقوة واستراتيجية للتغلب على العنصرية والتمييز. وفي هذا الصدد لاحظ لاسري (Lasry) أنه على الرغم من

وجود علاقة إيجابية بين الممارسة الدينية والصحة العقلية للمجموعات العرقية المتنوعة، إلا أن هذا قد يختلف باختلاف المجموعات الثقافية وبحسب الجنس[22]. ونتأكد من صحة قول (Lasry) من خلال تجربة إحدى المهاجرات (أنثى، 28 سنة، ناميبيا، متزوجة) التي أكدت بالقول " الدين ليس دائما ذو دور في إدارة الاكتئاب والأزمات النفسية بالنسبة لنا نحن كمهاجرين، فمثلا إن ذهبت إلى منزلي ستجد أبنائي متأزمين نفسيا على الرغم من أنني أحاول إشراكهم في الطقوس الدينية الجماعية، لكن أبنائي لازالوا يعانون نفسيا جراء عدم تأقلمهم بالمغرب".

"إن مهمة الكنيسة معطَاة من سيدها، يسوع المسيح، لتبشير العالم أجمع ببشارة الإنجيل، بكل بساطة." على حد تعبير معظم المهاجرين من دول افريقيا جنوب الصحراء، هذا الذي تأكد لنا من خلال ميدان البحث إذ أن التبشير بتعاليم المسيحية في بلاد المهجر، هو الضامن لهؤلاء المهاجرين في الحفاظ واستمرارية دينهم، إذ الدافع التبشيري المتأصل في الرسالة الأساسية للمسيحية يتحدى ضبط النفس. وهذا يدل على اتخاذ المهاجرون "إجراءات لنشر عقيدتهم في جميع أنحاء العالم[23]".

وتلعب الفروع الدينية، المتواجدة بالمغرب، ونخص بالذكر منطقتي أكادير وإ نزكان، دورًا كبيرًا في الدفاع عن رعاية المهاجرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء بالمغرب، حتى في المواقف التي تعرف نزاعات قانونية أو بين الأفراد والجماعات، ويوزع الذراع المجموعاتي للديانة المسيحية، الطعام والبطانيات للأشخاص الذين يعيشون في وضعية صعبة، والعازمين على البقاء في المغرب أو العبور للضفة الشمالية.

ومن كل هذا، لا تقتصر الهجرة على عبور الحدود الإقليمية فحسب، بل تشمل أيضًا الحدود المادية والاجتماعية والثقافية والنفسية التي تشكل وتحدد العلاقات وأنظمة المعنى والعضوية ووجهات النظر العالمية للتجارب اليومية[24]. ويلاحظ سميث أن الهجرة نفسها غالبًا ما تكون "تجربة لاهوتية"، حيث يوفر الدين ميلًا أخلاقيًا وموارد تغذي نظرة المهاجرين ويمكنهم من خلالها الرد على الارتباك والاغتراب الناجمين عن اقتلاعهم من جذورهم[25]. ويوفر الدين راحة نفسية مهمة للمهاجرين، لكنه يلعب أيضًا دورًا مؤسسيًا مهمًا، حيث يوفر مرسى للأشخاص الذين يعيدون الاستقرار في أرض أجنبية[26].

و يؤكد مجموعة من المشاركين (7 ذكور، السن ما بين 27 و35 سنة، ساوتومي، متزوجون) في البحث ان الكنائس معظمها من الكاثوليكية والبروتستانتية الرئيسية، وتقدم للقادمين الجدد الدعم المادي والمعنوي، والاستشارة القانونية، والحصول على الرعاية الطبية والسكن، وتضغط من أجل سياسات هجرة أقل صرامة، كما ينشئ المهاجرون كنائس جديدة، مثل التجمعات الإنجيلية أو الكنائس الرسمية (المنزلية...). ويقدمون تعابير إيمانية جديدة إلى الكنائس الراسخة، علاوة على ذلك واستجابةً لاحتياجات المهاجرين الجدد، تتغير الكنائس القائمة، بحيث يحدث التحول في كلا الاتجاهين في التفاعل بين المهاجرين الجدد والمساحات الدينية للمجتمع

وفي خضم كل هذا، حافظ المهاجرون دائمًا على روابط مع مجتمعاتهم الأصلية بينما كانوا يحاولون في الوقت نفسه أن يصبحوا جزءًا من المجتمع المستقبل، ومع الابتكارات الواسعة النطاق في مجال النقل والاتصالات والترابط الاقتصادي العالمي المتزايد للرأسمالية المعاصرة، يمكن للعديد من المهاجرين اليوم أن يظلوا نشيطين بسهولة أكبر في مجتمعاتهم الأصلية من خلال وسائل مختلفة، مثل التحويلات المالية والمحادثات الهاتفية والمؤتمرات عن بعد[27]. وقد عبر لنا مهاجر مسيحي (ذكر، 30 سنة، ساوتومي، متزوج) أن " الاستقرار المادي والنفسي بالدولة المغربية، يمنحنا الثقة الكاملة في ممارسة شعائرنا الدينية داخل كنيسة الرفقاء المؤمنين أو في منازل المجموعات الدينية، مما يساعدنا على ربط العلاقات الدائمة مع الأهل والأصدقاء بدولنا الأصلية" ، كما ظل المهاجرون مرتبطين بمجتمعاتهم الأصلية من خلال المؤسسات الدينية، وفي الآونة الأخيرة، لاحظ الباحثون المكانة المهمة للروابط المؤسسية الدينية مع مجتمعات الوطن، والتي توفر مساحة أخرى للمهاجرين للبقاء على اتصال بوطنهم[28]. وبالتالي وبشكل عام، لم تساعد المؤسسات الدينية المهاجرين على الاستقرار في المجتمع المغربي فحسب، بل وفرت روابط للمهاجرين للبقاء على اتصال مع أوطانهم.

المحور الثاني: التعبيرات الدينية من وجهة نظر مهاجري إفريقيا جنوب الصحراء.

1. التعبيرات الروحية والمؤسسية للدين من وجهة نظر النجيريين.

تعتبر تصورات المهاجرين لمشاركتهم في الأنشطة الدينية المؤسسية، وما تعنيه هذه بالنسبة لهم، ليست مستقلة عن السياق الأوسع الذي يغادره المهاجرون والذي يصلون إليه، إذ نعلم أن سياقات الخروج والوصول لها أهمية بالغة في حياة المهاجرين، ويحدد سياق الخروج كل من الموارد الاجتماعية والمالية والبشرية، وهذه الموارد يجلبها المهاجرون معهم. وهكذا فإن الظروف الهيكلية في سياقات الخروج والاستقبال معًا تحدد ما إذا كان المهاجرون سيكونون مؤهلين للحصول على مزايا المجتمع أو سيصبحون من أكثر أعضاء المجتمع المضيف ضعفاً وتهميشاً، لأن هذه السياقات بالغة الأهمية لدمج المهاجرين، فمن المعقول أن نفترض أن هذه الهياكل الأوسع ستؤثر أيضًا على تصور المهاجرين للكنيسة وأنشطتها، ومكانة التعبيرات المؤسسية للدين في أوطان المهاجرين، وموارد المهاجرين في المجتمعات المستقبلة. وفي إفادة قدمها لنا مهاجر (ذكر، 32 سنة، رواندا، متزوج). يقول " وضعي يختلف كليا عن مهاجر قبل خروجه من رواندا وفي جيبه مال كثير ويعرف أين سيقيم في المغرب، مقارنة بي أنا الذي خرجت من موطني أحمل حقيبة صغيرة تحتوي بعض الطعام ولا أملك فلسا، ولا أدري أين سأبيت في المغرب، إن الفرق بيني وبينه كبير، وسيكون وضعه في المغرب مخالفا لوضعي".

وفي هذا السياق ظهر جانبان من وجهات النظر الدينية للمساعدة في فهم تصورات المهاجرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء بمنطقتي " أكادير" و " إنزكان" لأهمية استمرار الدين في حياتهم، ويرتبط **الأول** بكيفية تشكيل سياق الخروج لآراء المهاجرين حول مشاركتهم في المؤسسات الدينية وأنشطة الكنيسة. ويتعلق الجانب **الثاني** بكيفية تأثير سياق الوصول على تصورات المهاجرين لأنشطة الكنيسة. ويوضح هذان الجانبان معًا كيف تؤثر سياقات الخروج والوصول على تصورات المهاجرين، وكيف تساعد الأطر التي تم تطويرها داخل تلك الأوساط الاجتماعية للمهاجرين على فهم المؤسسات الدينية وعوالمهم الخاصة، بشكل عام في المجتمع المضيف. هذا ما أكدته لنا ثلاث مهاجرات (إناث، السن ما بين 27 و35 سنة، أنغولا، متزوجات). بالقول إن " أهمية استمرار الدين بالنسبة كمهاجرات تحدده الظروف التي نحن عليها، قبل الخروج من مواطننا وأثناء الوصول للبلد المقصد، فلا يمكننا أبدا ونحن في حاجة ماسة الى مجتمع كنسي سيساعدنا على تحقيق ما نربو إليه ونرفض ذلك، فربما يمكن لمهاجر تتوفر له جميع الظروف الملائمة للعيش الكريم وليس بحاجة ماسة الى مساعدة المجتمع الكنسي أن يقول لا أهمية للدين".

ولفهم العلاقة بين الكنائس والمهاجرين، يجب على المرء أن ينظر إلى استجابتهم ومشاركتهم في الأنشطة الدينية والعبادة في الكنيسة التي هي بمثابة حفاظ المهاجرين على استمرارية الدين بالنسبة لهم في بلد الاستقبال، ويختلف المهاجرون في هذا البحث من ناحية وجهات نظرهم حول مكانة المؤسسات الدينية في حياتهم، ولكن أحد الاختلافات الأكثر لفتًا وثباتًا هو بين وجهات نظر النيجيريين ووجهات نظر الكاميرونيين بشكل عام، إذ فصل النيجيريون الروحانيات عن التعبيرات المؤسسية للدين، بينما لم يفصل الكاميرونيين جانب الروحانيات عن التعبيرات المؤسسية الدينية. ويبدو أن هذا الفصل له جذوره في مكان الكنيسة في بلدهم الأصلي.

إذ مال النيجيريون إلى تفسير عدم مشاركتهم في التعبيرات المؤسسية للدين المسيحي من حيث الأغلبية المسلمة نسبيا في نيجيريا. وتعرب مهاجرة (أنثى، 31 سنة، نيجيرية، متزوجة) وهي مقيمة بالمغرب من حوالي ثلاث سنوات، أوضحت لنا سبب عدم تمسكها بالتعبيرات الدينية بالقول «أنا أعتبر أنه لا وجود للدين، دعني أوضح، عندما أقول لا دين، لا أقصد أننا لا نؤمن بالله، نحن نفعل. هل تفهمني؟ لكننا نؤمن [بالله]، كما نقول، بطريقة مبتذلة، بطريقتنا الخاصة، انظر يمكنك أن ترى هناك في منزلي شمعة نذرية للقديس جود، لكن ما يحدث هو أنه ليس لدينا دين، نحن نذهب أحيانا إلى الكنيسة خفية ومتواريين عن الأنظار لأنه في نيجيريا إذا ذهبت

الكنيسة أو قلت إنك متدين، فلن تتمكن من الدراسة، وستتأثر لا يمكنك غرس ذلك في أطفالك، وإلا عانوا من عواقب مثل عدم على الذهاب إلى الجامعة، الآن الأمر مختلف في نيجيريا)."

ويذهب لنفس الرأي المشارك جونيور، (ذكر، 24 سنة، نيجيريا، عازب): "أنا لا أذهب إلى الكنيسة، لكنني أؤمن بالله وأعتقد أنه ينبغي أن أؤذي أي شخص، أحاول أن أكون جيدًا مع الآخرين، هذا كل شيء، هذا هو ديني، أنا لا أؤمن بالكنيسة أو بالذهاب إلى الكنيسة أو القديسين، لم أترعرع على هذا النحو على الإطلاق ".

وأوضحت مهاجرة نيجيرية (أنثى، 43 سنة، نيجيرية، متزوجة) بالقول «حتى وقت قريب، لم أكن أؤمن بأي شيء، لكن منذ بضع سنوات مضت، حدثت لي أشياء فيها إعجاز لذلك، بدأت أؤمن بالله، لكني لا أعتنق أي دين، حسنًا، أنا أذهب إلى الكنيسة في بعض الأحايين، أنا أؤمن بطريقتي الخاصة، مثلما سيفعل كاثوليكي نيجيري أو إسباني. أنت تؤمن [بالله]، لكن ليس عليك حضور الكنيسة، لأننا لا نمتلك هذا التقليد."

في هذا الباب مرارًا وتكرارًا، ذكر النيجيريون أنهم مؤمنون، وقد آمنوا بالله حتى في نيجيريا، لكنهم تحدثوا عن "الإيمان بالله" "بطريقتهم الخاصة". يبدو أن هذا الموقف مرتبط بمكانة الكنيسة والدين في بلدهم الأصلي، حيث يرتبط الدين وتعبيره المؤسسي، باتباع العقيدة الإسلامية.

وقد وضح لنا عضو باتحاد الطلبة النيجيريين بمدينة أكادير (ذكر، 25 سنة، طالب، نيجيري، عازب). سبب فصلهم للإيمان بالله عن تعبيره المؤسسي: بالقول " ذهب الشعب النيجيري إلى الكنيسة قبل الثورة خوفًا مما قد يحدث في الحياة الآخرة، كان عليهم أن يكونوا متدينين لأنهم لا يتمتعون بأمن في هذه الحياة، مع الثورة تغير هذا، الآن هم كاثوليك متدينون لأنهم تعرضوا للقمع لسنوات عديدة، لا يمكنك حتى الذهاب إلى الكنيسة، لكن الناس الآن يعودون إلى الكنيسة كشكل من أشكال الاحتجاج ضد الدولة، أنت تعلم أن الدولة لا تدعم الدين المسيحي، لذلك يذهب الناس إلى الكنيسة، إنه أيضًا شكل من أشكال الهروب من الاضطهاد الذي يعاني منه الشعب النيجيري، إنهم يبحثون الآن عن كل أنواع الأديان للهروب من واقعهم".

عندما سألنا الطالب النيجيري عن مشاركته الدينية، قال ببساطة: "عائلتي تؤمن بالله، كانت منخرطة جدا في الكنيسة، لكنني أعتقد أنها أدركت أن هؤلاء أناس عاديون ولديهم فضائلهم وعيوبهم، وقد فهمت أن عائلتي تستطيع التواصل مع الله مباشرة، وأنها ليست مضطرة للذهاب إلى الكنيسة، لذا فهي لا تذهب إلى الكنيسة، لكنها تصلي كل ليلة، لكنني لم أشارك أبدًا في أي كنيسة لأن لدي شكوك، لا أعلم إن كان الله موجودًا، ما زلت متشككا بشأن الله"

كما ورد في كلمات الطالب النيجيري أعلاه، كانت تفسيرات النيجيريين تُلقى عادةً في البيئة السياسية والأيديولوجية التي شكلت الحياة في وطنهم، وهي تفسيرات أظهرت أيضًا فهمًا فكريًا جيدًا لكيفية تأثير هذه الظروف على وجهات نظرهم.

يقول دانييل، (ذكر، 35 سنة، نيجيري، متزوج): " نعم، أنا مسيحي، وأؤمن بالمسيح، لكني أدافع عن جميع الأديان والطوائف لأنني رأيت كيف تعرضوا للاضطهاد في نيجيريا، لكن الناس في هذه الأيام يعودون إلى الكنيسة لأن الشعب النيجيري يريد تلك القيم الإنسانية والروحية التي يفتقدها المجتمع النيجيري، لذا في عائلتي يوجد الآن كاثوليك ومعمدانيون وبروتستانت وآخرون.

و أوضح مهاجر آخر، (ذكر، 48 سنة، ناشط جمعوي، نيجيري، متزوج)، أن "النيجيريين قد يترددون في المشاركة في الأنشطة الدينية في المملكة المغربية لأن تجاربهم مع هذه الأنشطة في الوطن الأصلي قد لا تزال ماثلة في أذهانهم، لا يزال النيجيريون مترددين في الاقتراب من الكنيسة لأن هذا محظور في نيجيريا، قد يقولون، إذا ذهبت إلى هناك، سأواجه مشكلة مع الحكومة والشعب

إذا كنت متدينًا مسيحيا في نيجيريا فأنت تتعرض للتمييز وهذا ما يخاف منه المهاجرون النيجيريون في المغرب لأن الأذهان لازالت ترسبات الموطن الأصلي من القمع والاضطهاد الديني.

وما لامسناه في بعض الأحيان، بأقوال النيجيريين عن غير قصد إنهم ليس لديهم دين، وبعد ذلك على الفور، يصححون أنفسهم من خلال تقديم تفسير يوضح الفصل بين التعبيرات الروحية والمؤسسية لمعتقداتهم.

وقد بدت تفسيرات النيجيريين أكثر ذكاءً، ولم تعكس فقط مستوياتهم التعليمية العليا ولكن أيضًا تربيتهم العلمانية.

2. التعبيرات الروحية والمؤسسة من وجهة نظر الكاميرونيين

أما بالنسبة للكاميرونيين من ناحية أخرى، كانت المعتقدات الروحية والتعبيرات المؤسسية تسير جنبًا إلى جنب، وكثيرًا ما كانوا يتحدثون عنها على أنها منسجمة، عندما يُسألون عما إذا كان لديهم معتقدات دينية، فسوف يُدرجون في إجابتهم غالبا أو نادرًا ما يحضرون الكنيسة، أو ما إذا كانوا يذهبون إلى القداس يوم الأحد (بين الكاثوليك)، وبالتالي تشابك التعبيرات الروحية والمؤسسية لمعتقداتهم الدينية في أجوبتهم ذكروا الإيمان بالله، ومع ذلك، فقد كانوا أكثر عرضة من النيجيريين لربط هذا المعتقد بالأنشطة الدينية، عندما سُئلوا عن دينهم، بدلاً من فصل المعتقدات والتعبيرات المؤسسية عن الإيمان (وهو ما يفعله النيجيريون عادةً)، ركز الكاميرونيين بشكل حصري تقريبًا على التعبير المؤسسي، كما لو كان الإيمان بالله والتعبير المؤسسي عنه مترادفان.

على سبيل المثال، سألنا جوزفينا، (أنثى، 29 عامًا، كاميرونية، متزوجة) عن دينها أجابت ببساطة: "أنا لا أذهب إلى الكنيسة لأنني لا أثق بما يفعله القساوسة من الكاثوليك، حتى في الكاميرون، لم أكن أحب الذهاب إلى الكنيسة، ولكن أنا مسيحية بروتستانتية، لكن في الغالب يذهب الكثير من المسيحيين الكاميرونيين الى المشاركة في الكنيسة من خلال طقوسها". وبالمثل، أوضح زوجها أرما ندو (ذكر، 34 سنة، كاميروني، متزوج) أنه "بدلاً من الذهاب إلى الكنيسة، وجد "كنيسة" في مجموعته الدينية لأنهم يؤمنون بالله وكانوا "يتعبدون" من خلال حضور المجموعة يوميًا والصلاة وهذا طقس ألناه بين جماعة المؤمنين البروتستانت ولا مانع في الذهاب إلى الكنيسة أحيانا".

وأعربت فيرونيكا، (أنثى، 27 سنة، كاميرونية، عازبة) بالقول "لم يعد لدي دين"، عندما استفسرت عما تعنيه بهذا، أوضحت أنها "لم تعد تحضر الكنيسة بانتظام، وبالتالي اعتبرت نفسها "خارج الكنيسة لأنه بالنسبة لي، فإن حضور الكنيسة يعني أن تكون لديك مع الله، ومن المفترض أن اذهب إلى الكنيسة لزيارة الله في منزله، وبما أنني لا أذهب إلى الكنيسة، كما كنت في السابق فلا ينبغي أن أقول إن لدي دينًا".

على عكس النيجيريين أيضًا، لم يكن لدى الكاميرونيين نفس الفهم الفكري لمكانة الدين في حياتهم، نظرًا لأن الدين والتقاليد الثقافية متشابكة في أوطانهم، وبالتالي كانت التعبيرات والممارسات الدينية منتشرة في كل مكان في الحياة اليومية، وكان الكاميرونيين أكثر ميلًا لقبول التعبيرات الدينية المؤسسية بلا شك باعتبارها طبيعية تقريبًا. فعلى سبيل المثال، أوضح كوندي، (ذكر، 24 سنة، كاميروني، عازب)، بالقول "على الرغم من أنني لم أتفق دائمًا مع الكهنة وما تفعله الكنيسة، نشأت على تربية دينية فبالعودة إلى هناك في الكاميرون، يذهب الجميع إلى الكنيسة، حتى لو لم يذهبوا طوال الوقت، أعتقد أنها طريقتنا في الحياة، لا أعلم، هذا ما تعلمناه منذ صغرنا، انظر إلي حتى لو كنت لا أعتبر نفسي متدينًا، فقد أُجبرت على الذهاب إلى المواكب، والذهاب إلى الكنيسة خلال الأسبوع المقدس، للقيام بكل الأشياء التي يفعلها الجميع، تغلق المتاجر وكل شيء يوم الأحد لذلك يضطر الجميع إلى الاحتفال بالاحتفالات الدينية، كما على فرصة لتناول أطباق خاصة معدة خلال تلك الأيام، هذه الأشياء هي جزء من الحياة هناك، حتى الآن لا أذهب إلى الكنيسة على الإطلاق هنا في المغرب، أصلي بمفردي فقط إذا كنت في ورطة [يضحك]. لكن لسبب ما أود تعميد أطفالي، والزواج في الكنيسة

المغربية، ولا أعرف لماذا [يضحك]. أنت لا تسأل نفسك حتى لماذا تفعل هذه الأشياء، أنت تفعل ما يفعله الجميع ويتوقع منك القيام به."

في المقابل، نظر النيجيريون إلى مثل هذه الأنشطة في ضوء أكثر أهمية، وتساءلوا عن سبب حدوث أو عدم حدوث أنشطة معينة داخل حدود الكنيسة واستخدام فهمهم المتزايد لمكانة الكنيسة لفهم التعبيرات المؤسسية للكنيسة. وعلى الرغم من أن التصورات حول الدين والكنيسة في حياة المهاجرين بمنطقتي " أكادير" و " إنزكان" اختلفت بين النيجيريين والكاميرونيين، فقد شارك أعضاء من كلا المجموعتين في الأنشطة الدينية للعديد من الكنائس في المغرب. عندما سئلوا عما إذا كانوا قد شاركوا في مثل هذه الأنشطة أو إذا كانوا يرتادون الكنيسة، كانت هناك إجابة واحدة مشتركة بين الجميع، وهي تتعلق بالسياق الذي يعيش فيه هؤلاء المهاجرون الآن، تحدث الكاميرونيين والنيجيريين على حد سواء عن قيود مختلفة، مثل جداول العمل الضيقة والمسافات الجغرافية، والتي منعتهم أحيانًا من حضور الكنيسة التي يفضلونها أو حضور الكنيسة تمامًا.

فعلى سبيل المثال أوضحت أديسا، (أنثى، 19 عامًا، كاميرونية، متزوجة) بالقول "أود حضور الكنيسة في المغرب حيث شعرت بالترحيب حين ينادونني الرفقاء المؤمنون، لكن جدول عملي لا يسمح لي بفعل ذلك، أنا أعمل في عطلات نهاية الأسبوع، لذا لا الوصول إلى الخدمات على الإطلاق، لكن عندما أكون خارج الخدمة، سأذهب، وهذا أمر جميل".

وفي بعض الأحيان، تكون المسافة الجغرافية هي التي تمنع الناس من حضور الكنيسة، لأنهم يفضلون الذهاب إلى الكنيسة التي يعرفونها، ربما في المكان الذي يحضره صديق أو أحد أفراد الأسرة. كانت هذه هي حالة أكاتشي (أنثى، 40 سنة، كاميرونية، متزوجة)، وفي إجابتها لم تطرح مسألة المسافة فحسب، بل تطرح أيضًا العلاقة بين معتقداتها الدينية وتعبيراتها المؤسسية بالقول: "أنا كاثوليكية، حسنًا أنا لا أتبع ما يتطلبه الأمر لكي أكون كاثوليكية حقيقية، أنا لا أذهب لحضور القداس، أنا لا أعيش بالقرب من كنيسة، لا أفعل ذلك. لا أعرف أحدًا هناك لذا، فأنا لا أذهب إلى القداس يوم الأحد ".

ونظرًا للقيود المفروضة على قدرتهم على حضور كنيسة معينة، كان المشاركون في البحث يحضرون أحيانًا إلى كنيسة لا ينتمون إليها، بدافع الراحة، وليس بالضرورة دمج العناصر التوفيقية في هذه الممارسة، أما بالنسبة إلى أكيني، (أنثى، 45 سنة، كاميرونية، متزوجة) فإن الكنيسة الكاثوليكية التي كانت ترغب في حضورها كانت بعيدة جدًا، لذلك تحولت إلى الكنيسة الانجيلية بحي أغروض، الأقرب بكثير من المنزل الذي تقطنه وشرحت بالقول: " اعتدت أن أكون كاثوليكية في بلدي، لكن منذ أن كنت هنا، كنت أذهب إلى الانجيلية، أنا لم أغير معتقداتي، أنا لست إنجيلية الآن، لم أغير الدين أو أشعر في قلبي أنني أنتمي لكليهما، السبب الوحيد لذهابي إلى الكنيسة الانجيلية وليس الكنيسة الكاثوليكية هو أن هذه الكنيسة قريبة، ولأنني لا أملك سيارة.

وفي هذا السياق تتماشى هذه الملاحظات مع ما يصفه غاريلي ((Garelli بالحراك الإقليمي للمؤمنين الدينيين، حيث يختار الناس ليس فقط ما إذا كانوا سيؤمنون ولكن أيضًا متى وأين يعبرون عن إيمانهم، مما يجعل الكنائس تتنافس على أتباعها[29]. وطورت الكنيسة الكاثوليكية والكنائس البروتستانتية الرئيسية في مدينتي أكادير وإنزكان أنظمة معقدة لتلبية احتياجات الوافدين الجدد، كما قدمت الكنائس الإنجيلية، التي غالبًا ما تكون أصغر حجمًا، للمهاجرين دعمًا حيويًا، وقد ذكر المهاجرون أنهم تلقوا مساعدة من الكنيسة، لكن أنواع المساعدة اختلفت، على سبيل المثال بينما قال النيجيريون إنهم تلقوا المزيد من المساعدة الروحية والدعم المعنوي، تلقى الكاميرونيين بالإضافة إلى هذا النوع من المساعدة دعمًا ماديًا وماليًا أيضًا.

وفي هذا السياق ذهب العديد من المفكرين الاجتماعيين إلى إمكانية انحدار الدين والعرق، وهذا راجع بالأساس إلى نشأة علم في سياق العلمنة، الأمر الذي جعل أغلب علماء الاجتماع يهملون دور الدين في حياة المهاجرين، ومن خلال هذا المقال تبين أن الدين جيد بشكل خاص في تزويد المهاجرين بحس المعنى والهوية والانتماء، وتشكل الكنيسة العرقية المكان الذي يجد فيه المهاجرون

شعورًا بالانتماء والقيمة والمأوى في الأرض المستقبلة، إنه المجتمع الخاص بهم من نواح كثيرة، ويخلق الدين ويعيد إنشاء الهوية والإثنية، حيث يصبح جزءًا من كيفية تعريف المجموعات المختلفة لنفسها، بينما يتفاعل الناس في مؤسساتهم الدينية وشبكاتهم الاجتماعية المتجانسة إلى حد كبير، فإنهم يحددون ويشكلون عوالمهم باستمرار، لكنهم يفعلون ذلك بشكل مختلف عن المجموعات الأخرى، لأنهم يفعلون ذلك في سياق شبكات منفصلة عرقيًا واثنيا، وبالتالي فإن العلاقة بين الدين والهوية العرقية ديناميكية، كل منهما يعزز الآخر. من هذا المنظور، فإن إنشاء مجموعات اجتماعية على أساس نظام مشترك من الرموز والمعتقدات يحدث غالبًا على أسس عرقية واثنية لأن "الناس يختارون العبادة مع آخرين من أمثالهم، حيث يتم إنشاء المعنى والانتماء بسهولة أكبر وأكثر إشباعًا بشكل فردي.

كما أن إن الدين مهم لكثير من المهاجرين في صنع المعنى من الحياة وفي قبول المرض والتجارب السيئة، إذ أن الدين والروحانية يلعبان دورًا مهمًا في قبول وإدارة الاكتئاب. إضافة إلى أنه يحافظ من خلاله المهاجرون دائمًا على روابط مع مجتمعاتهم الأصلية بينما كانوا يحاولون في الوقت نفسه أن يصبحوا جزءًا من المجتمع المستقبل.

الخاتمة:

إن إضفاء الطابع العابر للحدود على الدين ليس مجرد عملية تجانس ثقافي. بدلاً من ذلك، يؤدي إلى تكوين نسخ محلية مختلفة من "نموذج عالمي" غير دقيق نوعًا ما للمعتقدات والطقوس والتنظيم الديني ". ويحتاج دين المهاجرين إلى توفير طرق للمؤمنين لمواصلة تمييزهم عن الثقافة الجديدة ويجب أيضًا أن يجيبوا على أسئلة الحياة في جو متغير. ومن ثم، فمن المحتمل أن يُحدث المهاجر تغييرات ولو بقدر ضئيل في دينهم وعقيدتهم ومعتقداتهم بمجرد تواجدهم في محيط جديد. قد يشمل المهاجرون جوانب من ثقافات أخرى في عقيدتهم لأسباب مختلفة. قد تكون هذه الأسباب دينية أو مادية.

لا يمكن إنكار أن الدين عامل دفع وجذب في الوقت نفسه في الهجرة، ولأسباب متنوعة. استقطبت الدولة المغربية عددًا كبيرًا من المهاجرين، ومع ذلك فإن غالبية هؤلاء كانوا من المهاجرين الاقتصاديين الذين استغلوا فرصة العيش والعمل في المغرب، ويذهب عدد كبير من مهاجري دول افريقيا جنوب الصحراء بحثًا عن إمكانيات اقتصادية أفضل، نتيجة لذلك، يبرر المهاجرون قراراتهم المتعلقة بالهجرة على أساس الاعتبارات السياسية والاقتصادية والدينية، الشيء المثير للاهتمام هو أنهم يحملون معهم أفكارهم الدينية وعاداتهم وأسلوب حياتهم، ويعززون بلدان المقصد من خلال كشف ثقافات جديدة للسكان الأصليين وخلق التماسك الاجتماعي عبر التعايش السلمي.

إن التفاعلات بين الأفراد من منطلق خلفيات دينية متميزة في البلد المضيف لها تاريخ غني وحيوي، وأعطت العديد من الدراسات نظرة ثاقبة حول الطرق المختلفة التي ساهمت بها الأديان في أسباب الهجرة والاستجابات لعواقبها.

يوجد في المغرب واجب اجتماعي راسخ للتسامح الديني. هذا أمر منطقي، خاصة وأن البلاد تتشبث بالدين الإسلامي المعتدل المالكي الأكثر ليونة، ولأن هناك إجماعًا واسعًا في البلاد على أن الحرية الدينية لا يمكن أن تزدهر في مجتمع بدون تسامح ديني.

الهوامش:

[1] J.P. Dolan. The Immigrant Church. Baltimore, MD, USA: Johns Hopkins University Press, 1975.

[2] M. Gordon. Assimilation in American Life. New York, NY, USA: Oxford University Press, 1964.

[3] L. Warner, and L. Srole. The Social Systems of American Ethnic Groups. New Haven, CT, USA: Yale University Press, 1945, P07.

[4] R.E, Park, Race and Culture. Glencoe, IL, USA: The Free Press, 1926/1950, P136.

[5] Ibid, R.E. Park. Race and Culture. Glencoe, P138.

[6] B. Wilson. Religion in Secular Society. London, ENG, UK: C.A. Watts, 1966, P12.

[7] J.K. Hadden. "Toward desacralizing secularization theories." Soc. Forces 65 (1987), 587–611, P 687

[8] B. Wilson. Religion in Secular Society. London, ENG, UK: C.A. Watts, 1966, P14.

[9] B. Wilson. Religion in Sociological Perspective. Oxford, NY, USA: Oxford University Press, 1982, P155.

[10] P.L. Berger. The Sacred Canopy. Garden City, NY, USA: Doubleday, 1967, P12.

[11] عبد الرحمن المالكي، مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة، إفريقيا الشرق، ص 139.

[12] O. Tschannen. "The secularization paradigm: A systematization." J. Sci. Study Relig. 30 1991, P397.

[13] R.J. Vecoli. Cult and Occult in Italian-American Culture: The Persistence of Religious Heritage. In Immigrants and Religion in Urban America. Edited by R. Miller, and T.D. Marzik. Philadelphia, PA, USA: Temple University Press, 1977, 33P.

[14] W. Herberg. Protestant, Catholic, Jew. New York, NY, USA: Doubleday, 1955, P72.

[15] P. van den Berghe. Human Family Systems. Prospect Heights, IL, USA: Waveland, 1990, p 134.

[16] K.N. Conzen, D.A. Gerber, E. Morawska, G.E. Pozzetta, and R.J. Vecoli. "The invention of ethnicity: A perspective from the U.S.A." J. Am. Ethnic Hist. 1, 1992, P23.

[17] A. Portes, and R.G. Rumbaut. Immigrant America, 3rd ed. Berkeley, CA, USA: University of California Press, 2006, p 56.

[18] D. Sikkink, and E.I. Hernandez. Religion Matters: Predicting School Success among Latino Youth. South Bend, IN, USA: Institute for Latino Studies, University of Notre Dame, 2003, P144.

[19] Kunovich, R. M. 'An Exploration of the Salience of Christianity for National Identity', Sociological Perspectives, 2006, P123.

[20] 2001 The Elementary Forms of Religious Life. In Sociology of Religion: A Reader. Susanne C. Monahan, William A. Mirola, and Michael J. Emerson, eds. Upper Saddle River, NJ: Prentice-Hall, Inc. Pp 9-15.

[21] Chow, W., Law, S., Andermann, L., Yang, J., Leszcz, M., Wong, J., & Sadavoy, J. Multi-family psycho education group for assertive community treatment clients and families of culturally diverse background: A pilot study. Community Mental Health Journal, 2010, P368.

[22] Jarvis, G. E., Kirmayer, L. J., Weinfeld, M., & Lasry, J. (2005). Religious practice and psychological distress: The importance of gender, ethnicity and immigrant status. Transcultural Psychiatry, P670.

[23] Origen, against Celsus, Orthodox EBooks, Book 3, Chapter 9, 912.

[24] Berger, Peter, and Thomas Luckmann, the Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge, Garden City (N.Y.), Doubleday and Company, 1966.

[25] Smith, Timothy L., "Religion and Ethnicity in America", in American Historical Review, (1978), P83.

[26] Gleason, Philip, "Immigration, Religion, and Intergroup Relations: Historical Perspectives on the American Experience", in Donald L. Horowitz and Gérard Noiriel (eds.), Immigrants in Two Democracies: French and American Experience, New York, New York University Press, (1992), P87.

[27] Menjívar, Cecilia, "Religious Institutions and Transnationalism: A Case Study of Catholic and Evangelical Salvadoran Immigrants", in International Journalof Politics, Culture and Society, (1999), P608.

[28] Levitt, Peggy, "Local-Level Global Religion: The Case of U.S.-Dominican Migration", in Journal for the Scientific Study of Religion, P 88.

[29] Garelli, Franco, "Choix des appartenances et mobilité territoriale des croyants en Italie", in Archives de Sciences Sociales des Religions, (1999), P 45.